

النمر وهند



أحمد حسن محمد أحمد

الفصل الأول: النمر في الظلال (مكمل)

المكان: دبلن، أيرلندا

الساعة تشير إلى الثالثة فجراً عندما هبطت الطائرة في مطار دبلن، تحمل في جوفها رجلاً لا يحمل سوى جواز سفر مزيف وذاكرة ثقيلة كحقيبة مليئة بالرصاص. حايم ليفي، أو "النمر" كما يعرفه رجال الظلال في جهاز الاستخبارات الإسرائيلي الموساد، خرج من المطار مرتدياً معطفاً أسود طويلاً يتساقط منه المطر كدموع متعبة. كانت دبلن تستقبله بأحضان باردة: رياح تعوي كذئاب جائعة، وأضواء المصابيح النيونية تتأرجح في الضباب كفراشات محتضرة. استنشاق حايم الهواء، فاختلطت رائحة التربة الرطبة برائحة الديزل والخبث المنبعثة من المدينة القديمة. لم يكن هنا من أجل السياحة. لم يكن هنا من أجل الحياة. كان هنا لأن النمر لا يختار فريسته؛ الفريسة تُختار له.

استقر حايم في شقة متواضعة فوق صيدلية قديمة في شارع كلارنس، حيث كانت لافتة النيون الخاصة بالصيدلية تومض بكسلة مقطعة، كأنها تحاول إرسال رسالة مشفرة إلى أحد ما. الشقة كانت صغيرة، جدرانها مغطاة بورق جدران أصفر باهت، ملطخ ببقع الزمن وأحلام المستأجرين السابقين. في الزاوية، سرير مفرد يصرخ عندما يجلس عليه، ومكتب خشبي متصدع يحمل آثار حبر كخريطة لأحلام منسية. على المكتب، وضع حايم جهاز اتصال مشفر بحجم علبة سجائر، خريطة دبلن مطوية بعناية كأنها كنز، ومسدس سيغ سوير P226 لامع كعين قطة في الظلام. جلس على الكرسي المتهترئ، أشعل سيجارة واحدة – العادة الوحيدة التي سمح لنفسه بها – وفتح ملف المهمة.

الدكتور بنيامين كوهين، فيزيائي يهودي في الأربعينيات من عمره، كان هدف المهمة. رجل ذو عينين غائمتين كالسما قبل العاصفة، وذكاء يجعل من معادلاته سلاحاً أخطر من أي قنبلة. كوهين، الذي اختفى من رادار الموساد قبل عامين، كان يعمل الآن في جامعة ترينيتي كوليدج، يطور صيغاً رياضية تحول الصواريخ إلى مذنبات تتحدى قوانين الفيزياء. إسرائيل تريد هذه المعادلات لتعزيز ترسانتها الدفاعية. مصر، كما أخبره رئيسه عبر مكالمة مشفرة، تريد لها لأغراض أخرى. "لا تفشل، حايم"، قال الرئيس بصوت كالرمل الجاف، صوت رجل رأى الكثير من الدماء ليؤمن بالكلمات. "لأن الفشل يعني أنك ميت، وأنا لا أحب كتابة تقارير عن الجواسيس الموتى." حايم لم يرد. لم يكن بحاجة إلى ذلك. كان نمراً، وصيد النمر لا يتطلب كلمات، بل مخالب.

أطفاً السجارة في منفضة زجاجية متصدعة concepts، ونظر من النافذة. الشوارع الرطبة لدبلن كانت تعكس أضواء المدينة كمرآة مكسورة. كان يحسب خطواته كقناص: خمس خطوات إلى الباب، ثلاث إلى السلم، سبع إلى الشارع. كان يعرف أن المدينة ليست ملعبه؛ كانت ساحة حرب، وكل وجه غريب قد يكون عدواً. لم ينم تلك الليلة. بدلاً من ذلك، أخرج صورة قديمة من جيبه الداخلي – صورة لأمه في قرية إسرائيلية، تقف أمام بئر جاف، عيناها تحملان وعداً لم يستطع تحقيقه. haa "ابق حياً، حايم"، كانت تقول دائماً. لكنه لم يكن متأكدًا إن كان يعيش أم ينجو فقط.

في صباح اليوم الثالث، بدأ حاييم مراقبة منزل كوهين، وهو منزل ضيق من الطوب الأحمر في شارع بيرس، حيث تنبعث رائحة الكارداموم والورق القديم من النوافذ المغلقة. كان يجلس في مقهى صغير عبر الشارع، يتظاهر بقراءة "أيريش تايمز" بينما عيناه ترصدان كل حركة. المقهى كان دافئاً، يعج برائحة القهوة المحروقة وصوت أحاديث الزبائن المتقطعة: طالب يشكو من امتحاناته، ونادلة تغني أغنية أيرلندية قديمة بصوت منخفض. حمل حاييم قلمًا ودفترًا صغيرًا، يكتب ملاحظات وهمية لدعم غطائه ككاتب: "المدينة تنام تحت المطر، لكنها لا تحلم." لكنه لم يكن يكتب قصصًا؛ كان يكتب أسماء، أوقات، وجهات. كوهين لم يظهر. بدلاً من ذلك، ظهرت هي.

هند محمد خرجت من محطة الترام على بعد عشرين مترًا، تحمل حقيبة قماشية مليئة بالبقالة: تفاح أحمر، علبه حليب، وكيس دقيق يبدو ثقيلًا أكثر مما ينبغي. كانت ترتدي معطفًا أزرق داكنًا، وشعرها الأسود الطويل يتطاير مع الريح كعلم متمرّد. صوتها كان حادًا وواضحًا وهي تتجادل مع موظف الترام: "سيدي، هذه التذكرة للمحطة التالية فقط! هل تظنني أحمق؟" كانت لهجتها مزيجًا غريبًا من الإنجليزية المصقولة والنبرة المصرية الناعمة، كأنها تعلمت اللغة من الكتب والأغاني التي كانت أمها تغنيها في طفولتها. حاييم رفع الجريدة قليلًا، يراقبها من فوق حافتها. لاحظ الطريقة التي تمشي بها: خطوات وثيقة، لكن كتفيها مشدودتان كأنها تحمل ثقلًا غير مرئي. عيناه، داكنتين كالليل قبل العاصفة، كانتا تلمعان بالتحدي والذكاء. لاحظ الندبة الصغيرة على يدها اليسرى، وهي تمسك بحقيبة البقالة، وتساءل عن قصتها. لم يكن من المفترض أن يهتم. لم يكن من المفترض أن يلاحظ.

تبعها بخطوات صامتة، حذاءه الجلدي ينزلق على الأحجار الرطبة دون إصدار صوت. كان قد تدرب على ذلك لسنوات: أن يكون ظلًا، شبحًا، شيئًا لا يرى ولا يُسمع. وصلت هند إلى منزل كوهين، أدخلت مفتاحًا في الباب، واختفت داخله. انتظر حاييم عشر دقائق، يحسب نبضات قلبه – ثمانية وخمسون نبضة في الدقيقة، هادئة كآلة – ثم تسلل إلى الزقاق الخلفي. كان المطر قد توقف، لكن الهواء لا يزال ثقيلًا برطوبة تخترق العظام. تسلق جدارًا منخفضًا مغطى بالطحالب الزلقة، مستخدمًا أطراف أصابعه للتشبث بالطوب المتآكل. نافذة المطبخ كانت مفتوحة قليلًا، تنسرب منها رائحة الكاري وصوت أغنية قديمة من فيلم مصري يعزفها راديو صغير. نظر حاييم من خلال الفجوة: هند كانت هناك، تضع البقالة على الطاولة، وتشعل موقد الغاز لتعد شايًا. تحركت بسلاسة، كأنها ترقص، خطواتها دقيقة كراقصة باليه. للحظة، نسي حاييم المهمة. نسي المعادلات. رأى فقط امرأة تحمل عالمًا من القصص في عينيها.

ثم التفتت فجأة، كأنها شعرت بوزنه في الهواء. "أنت مبكر"، قالت، صوتها هادئ لكنه حاد كسكين. كانت تقف، يديها على خصرها، عيناهما تتفحصانه كما لو كانت تقرأ صفحة من كتاب مشفر. حاييم، الذي كان قد تسلل عبر الباب الخلفي دون صوت، وقف في إطار الباب، يسمح قطرات المطر عن معطفه. لاحظ الندبة على فكه، التي حاول إخفاءها بلحية خفيفة، وشعر بها كعلامة خيانة. "أنا دائمًا مبكر"، رد بهدوء، صوته عميق كصوت رعد بعيد. اقترب خطوة، لاحظ الطريقة التي أمسكت بها بكوب الشاي، أصابعها مشدودة قليلًا، كأنها تستعد للقتال. "أنت لست كاتبًا"، قالت، وكانت ابتسامتها مأكرة، كأنها تعرف سرًا هو نفسه لا يعرفه بعد. "لا"، اعترف، عيناه لا تفارقان عينيها. "لكنني جيد في التظاهر."

توقف الزمن للحظة. المطر بدأ يهطل مجددًا، يدق على النوافذ كإيقاع طبل بطيء. حاييم شعر بشيء غريب في صدره، شيء لم يشعر به منذ سنوات: نبضة إضافية، كأن قلبه قرر أن يعيش لحظة خارج السيطرة. لم يكن من المفترض أن يشعر بهذا. الحب، كما علمه عالم الجواسيس، كان نقطة ضعف، ثغرة أمنية، رصاصة تنتظر إطلاقها. لكنه لم يستطع إنكار الجذب الغريب نحوها، كأنها مغناطيس يسحب بوصلته بعيدًا عن الشمال الحقيقي.

تراجع خطوة، أعاد تركيزه إلى المهمة. "أنا هنا لرؤية الدكتور كوهين"، قال، صوته محايد الآن. "للأسف، هو ليس هنا"، ردت هند، وهي تميل رأسها قليلاً، كأنها تتحدها أن يسأل المزيد. لم يسأل. بدلاً من ذلك، أدار ظهره وخرج إلى المطر، ظلّه يذوب في الزقاق كحبر في الماء.

لكنه لم يذهب بعيداً. في تلك الليلة، جلس على سطح شفته، يراقب أنوار دبلن وهي تنطفئ واحدة تلو الأخرى. فكر في هند، في عينيها اللتين تحملان قصة لم يكتبها بعد. فكر في النمر داخل صدره، يتجول، غير مطمئن. كان يعلم أن هذه المهمة لن تكون مثل غيرها. لم تكن المعادلات هي الخطر الوحيد. الخطر الحقيقي كان يقف في مطبخ صغير، يعد الشاي، وينظر إليه كأنه لغز يستحق الحل.

الفصل الثاني: راقصة تحت المطر

المكان: دبلن، أيرلندا

اليوم الرابع في دبلن كان كأنه صفحة من رواية لم تُكتب بعد، مليئة بالكلمات غير المكتملة والحبر الذي يتسرب ببطء. كان حايم يقف في زقاق خلفي، يراقب منزل كوهين من بعيد، عيناه مثبتتان على النافذة التي تسربت منها رائحة الكاري ليلة أمس. اليوم، كان الهواء أقل رطوبة، لكن السحب لا تزال ثقيلة، معلقة فوق المدينة كستارة رمادية تمنع الشمس من إلقاء نظرة. كان قد قضى اليوم السابق يجمع معلومات عن الدكتور بنيامين كوهين: رجل غامض، يعيش حياة منعزلة، يظهر في الجامعة مرة واحدة في الأسبوع، ويترك وراءه أوراقاً مليئة بالمعادلات التي تبدو كأنها خريطة للكون نفسه. لكن حايم لم يكن يفكر في المعادلات الآن. كان يفكر فيها — هند، اللغز الذي ظهر دون سابق إنذار، بعينيها اللتين تحملان عاصفة صامتة.

عاد إلى منزل كوهين في الصباح، هذه المرة بغطاء أكثر جرأة. طرق الباب، ممسكاً بدفتر ملاحظات مزيف وقلم رخيص، متظاهراً بأنه كاتب يبحث عن قصص محلية لرواية عن المهاجرين في دبلن. الباب فتحته هند، مرتدية قميصاً أبيض بسيطاً وبنطالاً رمادياً يعانق خصرها بنعومة. شعرها الأسود كان مربوطاً بعشوائية، خصلات متمردة تتساقط على جبهتها كأنها تتحدى النظام. وقفت في إطار الباب، يديها متشابكتان، عيناها تتفحصانه كما لو كان لوحة مليئة بالشقوق. "مرة أخرى؟" قالت، نبرتها مزيج من السخرية والفضول. "يبدو أنك مهتم جداً بالدكتور كوهين."

حايم ابتسم، ابتسامة صغيرة لم تصل إلى عينيهِ. "ليس بالدكتور"، قال، صوته هادئ كسطح بحيرة قبل العاصفة. "بالقصص. أنا كاتب، تذكّر؟" تقدم خطوة إلى الداخل، متجاهلاً التوتر الذي يملأ الهواء بينهما. المطبخ كان صغيراً، مضاء بضوء خافت من نافذة تطل على فناء خلفي مغطى بالطحالب. على الطاولة، كانت هناك أكواب شاي زجاجية، وبجانبتها طبق يحتوي على بقايا سمبوسة محروقة قليلاً. رائحة الكمون والكزبرة تملأ المكان، ممزوجة برائحة الورق القديم المنبعثة من كتب مكدسة في الزاوية. "يبدو أنك طبخة جيدة"، قال حايم، محاولاً تخفيف التوتر. هند ضحكت، ضحكة قصيرة كأنها نغمة من أغنية لم تكتمل. "أمي كانت الطبخة. أنا فقط أحاول ألا أحرق المنزل."

جلسا على طاولة المطبخ، وكان الزمن قرر أن يمنحهما لحظة للتنفس. تحدثت هند عن نفسها، كلماتها حذرة لكنها صادقة جزئياً. كانت طالبة رقص في جامعة ترينيتي، تحمل حلمًا ورثته عن أمها المتوفاة: إعادة إحياء أكاديمية رقص صغيرة في القاهرة، لكن الديون التي تركتها أمها كانت مثل حجر يسحبها إلى القاع. "الرقص هو الحرية الوحيدة التي أملكها"، قالت، وهي تنظر إلى كوب الشاي بين يديها، كأنها تبحث عن إجابات في أوراق الشاي. حاييم استمع، صامتًا، لاحظ الطريقة التي تتحرك بها يداها، كأن كل إيماءة هي جزء من رقصة لم تبدأ بعد. كان يعرف أن عليه أن يسأل عن كوهين، عن الأوراق، عن السبب الذي يجعلها في هذا المنزل. لكنه لم يفعل. بدلاً من ذلك، قال: "في قريتي الإسرائيلية، كانوا يرقصون تحت النجوم. لم تكن رقصات معقدة، لكنها كانت... صادقة." توقف، مدركًا أنه قال أكثر مما ينبغي.

"صادقة؟" كررت هند، عيناها تلتقطان عينيه كصياد يمسك بفريسة. "هل أنت صادق، يا سيد الكاتب؟" كانت نبرتها لعبوة، لكن فيها شيء أعمق، كأنها تحاول قراءة الصفحات التي يخفيها. حاييم شعر بنبضة إضافية في صدره، شيء لم يشعر به منذ سنوات. "أحيانًا"، قال، وابتسم ابتسامة جعلت الندبة على فكه تبدو أقل قسوة. لم تكن هناك إجابات واضحة في ذلك المطبخ، فقط أسئلة معلقة كالضباب الذي يغطي شوارع دبلن.

في اليوم التالي، وجد حاييم نفسه يتبعها مرة أخرى، هذه المرة إلى مسرح جامعي صغير في قلب ترينيتي كولدج. كانت هند قد أخبرته عن عرض مسرحي بعنوان "ابني، بينوكيو"، حيث كانت مسؤولة عن كوريغرافيا الراقصين. اشترى حاييم تذكرة مزيفة من أحد الطلاب في الشارع، وتسلل إلى المسرح، مختبئًا خلف الكواليس بين الستائر المخملية الثقيلة التي تفوح منها رائحة الغبار والخشب القديم. المسرح كان صغيرًا، مضاءً بأضواء خافتة تجعل الوجوه تبدو كأنها أقنعة. على المسرح، كان الطلاب يؤدون قصة الدمية الخشبية التي تحلم بأن تصبح إنسانًا. لكن حاييم لم يكن يشاهد العرض. كان يشاهد هند.

كانت تقف على جانب المسرح، ترتدي سترة سوداء بسيطة، شعرها مربوط بإحكام هذه المرة. كانت توجه الراقصين بحركات يد دقيقة، كأنها قائدة أوركسترا صامتة. عندما بدأت الموسيقى – مزيج من الكمان والطبول البطيئة – تحركت هند مع الراقصين، خطواتها خفيفة كأنها تطفو فوق الأرض. كانت ترقص كما لو كانت تحكي قصة، قصة عن الحرية، عن الأحلام المكسورة، عن قلب ينبض رغم الثقل. حاييم، المختبئ في الظلال، شعر بشيء يتحرك داخله، شيء لم يكن مدربًا على مواجهته. لم تكن هند مجرد هدف في ملف مهمة. كانت لغزًا، لوحة، أغنية لم يسمعها من قبل. للحظة، نسي المعادلات، نسي كوهين، نسي النمر الذي يعيش في صدره.

بعد انتهاء العرض، وجدت هند حاييم في الممر الخلفي للمسرح، حيث كانت الأضواء الخافتة ترسم ظلالاً طويلة على الجدران. "جئت"، قالت، وفي صوتها مزيج من المفاجأة والرضا. "قلت إنني سأفعل"، رد حاييم، وهو يحاول أن يبدو عاديًا، لكن عينيه خانتاه. كانت تنظر إليه كأنه كتاب مفتوح، رغم أنه قضى حياته يتعلم كيف يبقى مغلقًا. "لم يكن عليك"، قالت، وهي تمشي بجانبه، خطواتهما متزامنة دون قصد. "أردت أن أرى إن كنت حقيقيّة"، قال، وكانت الكلمات أكثر صدقًا مما كان ينوي.

مشيا معًا في شوارع دبلن المضاءة بمصابيح الصوديوم، التي تحول العشب إلى لون العملات القديمة. كان المطر قد توقف، لكن الهواء لا يزال رطبًا، يحمل رائحة الأحجار المبللة ودخان المقاهي. تحدثت هند عن أمها، عن الأكاديمية التي كانت ملاذها في القاهرة، عن الديون التي تجعلها تشعر كأنها سجين. "كانت أُمي ترقص كأنها تملك العالم"، قالت، وهي تنظر إلى السماء الرمادية. "أحيانًا، أحاول أن أرقص مثلها، لكنني أشعر أنني

أغرق. "حاييم استمع، صامتًا، لكنه شعر بثقل كلماتها. شاركها قصة صغيرة عن قريته الإسرائيلية، عن النجوم التي تبدو قريبة لدرجة أنك تعتقد أن بإمكانك لمسها. "كنت أجلس على سطح منزلنا، أحصي النجوم، وأتساءل إن كان هناك شيء أكبر من ذلك،" قال، صوته منخفض، كأنه يشارك سرًا لم يكن يعرف أنه يملكه.

توقفًا أمام جسر صغير فوق نهر ليفي، حيث كانت المياه تعكس أضواء المدينة كلوحة مائية متلاشية. هند التفتت إليه، عيناها تلتقطان ضوء المصابيح. "من أنت حقًا؟" سألت، صوتها هادئ لكنه حاد كشفرة. كان السؤال مثل رصاصة، لكنه لم يكن مستعدًا لها. حاييم نظر إليها، شعر بنبضه يتسارع للحظة، ثم عاد إلى هدوئه المعتاد. "أنا مجرد رجل يحب القصص،" قال، وكانت الكذبة ناعمة كالحرير، لكنها تركت طعمًا مرًا في فمه. هند ابتسمت، ابتسامة لم تكشف عن شكوكها أو إيمانها. "حسنًا، سيد القصص،" قالت، وهي تتبعد خطوة. "لا تنس أن القصص الحقيقية دائمًا لها نهاية."

تركته ووفقًا على الجسر، ظله يمتد على الأحجار الرطبة كخط مكتوب بحبر غير مرئي. حاييم أشعل سيجارة أخرى، وهو يراقبها وهي تختفي في الضباب. كان يعلم أنها ليست مجرد طالبة رقص. كان هناك شيء في طريقته، في عينيها، في الطريقة التي تمسك بها كوب الشاي كأنها تستعد لمعركة. لكنه لم يكن مستعدًا للسؤال الحقيقي: لماذا كان قلبه، النمر الذي لا يهدأ، يهدر بهدوء عندما كانت قريبة؟

الفصل الثالث: القبة الأولى

المكان: دبلن، أيرلندا

الأيام في دبلن كانت تمر كأنها أحجار مبللة تنزلق تحت أقدام متعجلة، كل واحدة تحمل وزنًا لا يُرى. كان حاييم، حاييم ليفي، يعيش في حالة من اليقظة الدائمة، عيناها ترصدان كل زاوية في شوارع المدينة الضيقة، أذناه تلتقطان كل همسة تحمل رائحة الخطر. لكنه لم يكن مستعدًا للخطر الذي يتسلل إلى قلبه، خطر يحمل اسم هند محمد. منذ لقائهما الأول في مطبخ كوهين، ثم مشاهدته لها وهي ترقص كأنها تتحدى الجاذبية في عرض "ابني، بينوكيو"، أصبحت هند أكثر من مجرد اسم في ملف مهمته. كانت أغنية عالقة في رأسه، نغمة لا يستطيع طردها مهما حاول.

كانت لقاءاتهما المتكررة في دبلن تبدو كأنها صدفة، لكنها لم تكن كذلك تمامًا. في اليوم السادس من وجوده في المدينة، وجد حاييم نفسه يجلس في مقهى صغير يُدعى "القط الأسود"، على بعد شارعين من جامعة ترينيتي كوليدج. المقهى كان ملاذًا دافئًا وسط برد دبلن، جدرانه مغطاة بلوحات زيتية باهتة تصور بحارة أيرلنديين وغابات خضراء. رائحة القهوة المحمصة تمتزج برائحة الكعك المخبوز حديثًا، وصوت راديو قديم يعزف أغنية لفرقة U2 يملأ الهواء. جلس حاييم في زاوية بعيدة، أمامه كوب قهوة أسود لم يمسه، ودفتر ملاحظات مفتوح يتظاهر بأنه يكتب فيه. كانت عيناها مثبتتين على الباب، ينتظر ظهور هند.

دخلت هند المقهى بعد عشر دقائق، مرتدية معطفًا أخضر داكنًا يبرز لون عينيها. كان شعرها مبللًا قليلاً من المطر الخفيف الذي بدأ يهطل خارجًا، وخصلة متمردة تلتصق بجبهتها كأنها خط من قصيدة. لاحظت حاييم

على الفور، وجلست مقابلته دون دعوة، وكأنها تعرف أنه كان ينتظرها. "تكتب قصة جديدة، أيها الكاتب؟" سألت، نبرتها لعبية لكن عينيها حادتين كشفرتين. حاييم أغلق الدفتر ببطء، وابتسم ابتسامة لا تكشف شيئاً. "ربما. لكنني بحاجة إلى شخصيات مثيرة للاهتمام." ضحكت هند، ضحكة خفيفة كأجراس الرياح، لكنها سرعان ما تحولت إلى صمت مدروس. "وأنا؟ هل أنا مثيرة للاهتمام؟" سألت، وهي تميل إلى الأمام، كأنها تحاول قراءة ما وراء عينيها.

بدأ الحديث بينهما كرقصة حذرة، كل منهما يحاول قياس الآخر دون كشف أوراقه. تحدثت هند عن أحلامها، عن الرقص الذي يجعلها تشعر كأنها طائر حر في سماء لا حدود لها. "عندما أرقص، أنسى الديون، أنسى الخوف، أنسى كل شيء"، قالت، وهي تنظر إلى كوب الشاي أمامها، أصابعها تتبع حافة الكوب بحركة دائرية بطيئة. حاييم استمع، صامتاً، لكنه شعر بشيء يتحرك داخله، كأن كلماتها كانت مفاتيح تفتح أبواباً أغلقها منذ زمن. شاركها قصة صغيرة عن طفولته في إسرائيل، عن ليالي قضاها يراقب النجوم مع أمه، التي كانت تحكي له قصصاً عن أبطال يقاتلون التنانين. "كنت أؤمن بهذه القصص"، قال، صوته منخفض، كأنه يعترف بخطيئة. "لكن التنانين الحقيقية لا تُهزم بسهولة." نظرت إليه هند، عيناها تلتقطان ضوء المصباح فوق الطاولة، ولم تسأل عن معنى كلماته. لكنها علمت أن هناك ظلالاً في قصته لم يكشف عنها.

غادرا المقهى معاً، يمشيان تحت سماء دبلن الرمادية، حيث كان المطر الخفيف يترك قطرات صغيرة على معطفه الأسود وشعرها الأسود. كانا يتحدثان عن أشياء بسيطة – عن الموسيقى الأيرلندية، عن الشوارع المرصوفة بالحجارة، عن رائحة البحر التي تصل أحياناً إلى المدينة. لكن تحت السطح، كان هناك تيار من التوتر، كان كلاهما يعرف أن هذه اللحظات مسروقة من عالم لا يسمح بها. توقفاً أمام متجر صغير لبيع الكتب، حيث كانت الواجهة الزجاجية تعكس وجهيهما كلوحة مزدوجة. "لماذا أشعر أنني أعرفك من قبل؟" سألت هند فجأة، صوتها هادئ لكنه مليء بالتساؤل. حاييم لم يجب على الفور. بدلاً من ذلك، نظر إلى انعكاسهما في الزجاج، ورأى رجلاً لم يعد متأكداً من هويته. "ربما لأننا كلانا نبحث عن شيء لا نستطيع تسميته"، قال أخيراً، وكانت الكلمات أقرب إلى الحقيقة مما كان ينوي.

في تلك الليلة، كان المطر قد تحول إلى زخات ثقيلة، يدق على شوارع دبلن كإيقاع طبل حربي. كانا يقفان أمام الجاليري الوطني، تحت مظلة مقهى مغلق، حيث كانت لافتة النيون الخاصة بالمقهى تومض بشكل متقطع، ترسم ظلالاً متقلبة على وجهيهما. هند، التي كانت تمسك بالمظلة، اقتربت منه قليلاً، حتى أصبحت رائحة عطرها – مزيج من الياسمين والمطر – تملأ الهواء بينهما. "أنت لست مثل الآخرين، أليس كذلك؟" همست، عيناها تبحثان في عينيها كأنها تحاول فك شفرة. حاييم شعر بقلبه ينبض بشكل أسرع، كأن النمر داخله قرر الركض لأول مرة. "ولا أنت"، رد، وكان صوته منخفضاً، كأنه يخشى أن يسمعه العالم.

ثم حدثت القبلية. كانت عفوية، كأنها لحظة هربت من قبضة الزمن. اقترب حاييم، يده تمسك بحافة المظلة، وشفتهما تلتقيان بشفتيهما في لحظة مشحونة بالعاطفة. كانت القبلية دافئة وسط برودة المطر، طعمها مزيج من الشاي الذي شربته في المقهى وقطرات الماء التي تساقطت على وجهها. للحظة، توقف العالم: لا معادلات، لا جواسيس، لا مهمات. فقط هو وهي، ظلال متشابكان تحت مظلة تتسرب منها قطرات المطر. لكن اللحظة انكسرت كزجاج هش بصوت طلقة نارية من زقاق قريب.

تحرك حايبم غريزيًا، كما لو كان جسده مدربًا على الخطر قبل أن يفكر عقله. دفع هند خلف صندوق قمامة معدني، جسده يغطيها كدرع. سحب مسدسه من تحت معطفه، عيناه تفحصان الزقاق المظلم. الطلقة كانت تحذيرًا، لكن المهاجم اختفى في الضباب قبل أن يتمكن حايبم من رؤيته. صوت صفارات الشرطة بدأ يقترب، لكنه كان بعيدًا بما يكفي ليعطيه لحظة للتنفس. نظر إلى هند، التي كانت تتنفس بسرعة، عيناه واسعتان لكنها لم تبد خائفة. "من أنت؟" سألت مرة أخرى، لكن هذه المرة كان السؤال أكثر إلحاحًا. "شخص يحاول إبقاءك على قيد الحياة"، رد، وهو يساعد على الوقوف.

عاد حايبم إلى شقته تلك الليلة، لكنه لم ينم. جلس على سطح الشقة، تحت سماء دبلن التي لا تكشف عن نجومها. المطر كان قد توقف، لكن الهواء لا يزال ثقيلًا برطوبة تخترق العظام. أشعل سيجارة، ودخانها يتصاعد كأرواح تائهة. فكر في هند، في عينيها اللتين تحملان قصة لم يكتبها بعد، في القبة التي كانت مثل رصاصة لم يكن مستعدًا لها. فكر في المهمة – الدكتور كوهين، المعادلات، الخطر الذي يترصد في كل زاوية. لكنه لم يستطع إنكار أن المهمة بدأت تتلاشى أمام شيء أكبر، شيء لم يكن مدربًا على مواجهته: الحب، أو على الأقل، شبحه.

في تلك اللحظة، اتخذ قرارًا. كان عليه مغادرة دبلن. ليس لأن المهمة تطلب ذلك، بل لأنه كان يعلم أن البقاء سيجعله يفقد أكثر من غطائه. لكنه، قبل أن يغادر، كتب رسالة صغيرة على ورقة ممزقة من دفتر ملاحظاته: "سأراك مرة أخرى." وضعها في ظرف، وأودعها في صندوق بريد قريب من منزل كوهين، متأملًا أن تجدها هند. ثم عاد إلى شقته، حزم حقييته، ونظر إلى المدينة للمرة الأخيرة. كان النمر داخله يهدر، لكنه لم يكن متأكدًا إن كان يهدر من الغضب أم من شيء آخر، شيء لم يجروا على تسميته.

الفصل الرابع: السر المزدوج

المكان: دبلن، أيرلندا

اليوم السابع في دبلن كان كأنه لوحة ناقصة، ألوانها مشوشة بالمطر والشك. حايبم، حايبم ليفي، كان يقف في شقته المستأجرة فوق الصيدلية، يحزم حقيته ببطء كأنه يحاول تأخير لحظة الرحيل. الشقة، التي كانت ملجأ المؤقت، بدت الآن كقفص: جدرانها الصفراء الباهتة، السرير الذي يصرخ عندما يجلس عليه، والنافذة التي تطل على شارع كلارنس حيث لافتة النيون تومض كقلب متعب. كان المطر قد توقف، لكن الضباب استقر على المدينة كغطاء من الرصاص، يخفي النجوم ويجعل كل شيء يبدو غامضًا، كأن دبلن نفسها كانت تخفي سرًا. لكن السر الحقيقي لم يكن في المدينة. كان فيها – هند محمد.

في الساعات الأخيرة، تلقى حايبم تقريرًا مشفرًا من رئيسه في الموساد. كانت الرسالة قصيرة لكنها مدمرة كرصاصة: "هند محمد، طالبة رقص، مرتبطة بالمخابرات المصرية. مهمتها: حماية معادلات كوهين. لا تتق بها." كانت الكلمات مثل طعنة في صدره، ليست لأنها كانت مفاجأة – فقد كان يشك منذ البداية – بل لأنها جعلت القبة التي تبادلها أمام الجاليري الوطني تبدو ككذبة. هند، الراقصة التي تحدثت عن أحلامها بإعادة إحياء أكاديمية أمها، التي ضحكت كأن العالم لا يزال يحمل أملًا، كانت جاسوسة. مثلها مثل حايبم، كانت تعيش في عالم من الأقنعة، حيث الحقيقة هي العدو الأول.

لكن الشك لم يكن من طرف واحد. في اليوم نفسه، كانت هند تجلس في غرفتها الصغيرة في منزل كوهين، تحديق في شاشة هاتفها المشفر. رسالة من رئيسها في المخابرات المصرية كانت واضحة: "حاييم ليفي، المعروف بالنمر، عميل موساد. هدفه: سرقة المعادلات. راقبيه عن كثب." كانت يداها ترتجفان قليلاً وهي تقرأ الرسالة، ليس من الخوف، بل من الغضب. غضب على نفسها لأنها سمحت له بالاقتراب، لأنها شعرت بشيء حقيقي في عينيه عندما تبادلوا تلك القبلة تحت المطر. كانت تعلم أن عليها أن تكون حذرة، لكن قلبها، الذي دربته على الصمت، بدأ يهمس بصوت لا تستطيع تجاهله.

قرر حاييم أن يراها مرة أخيرة قبل مغادرته دبلن. لم يكن يعرف لماذا — ربما ليختبرها، ربما ليثبت لنفسه أنها مجرد جزء من المهمة، أو ربما لأنه لم يستطع مقاومة الجذب الذي يشعر به نحوها. اختار مقهى "القط الأسود" مرة أخرى، المكان الذي التقيا فيه من قبل، حيث رائحة القهوة المحمصة والكعك الطازج تملأ الهواء، وصوت الأحاديث المتقطعة يخلق ستاراً مثاليًا للمحادثات السرية. أرسل لها رسالة نصية قصيرة من هاتف مؤقت: "القط الأسود، الخامسة مساءً. لدي قصة أخيرة لك." لم يكن متأكدًا إن كانت ستأتي، لكنه كان يعلم أنها لن تستطيع مقاومة الفضول.

دخلت هند المقهى في الخامسة والنصف، متأخرة عن قصد، كما لو كانت تريد أن تتحكم في إيقاع اللقاء. كانت ترتدي سترة صوفية رمادية ووشاحاً أحمر يعانق رقبتها كشريط من الدم. شعرها كان مبللاً قليلاً من المطر الخفيف الذي بدأ يهطل مجدداً، وعيناها كانتا حادتين كأنها تستعد لمعركة. جلست مقابله، دون أن تنزع وشاحها، ووضعت يديها على الطاولة كأنها ترسم خطأ غير مرئي بينهما. "قصة أخيرة؟" سألت، نبرتها ساخرة لكن فيها ظل من القلق. "يبدو أنك على وشك المغادرة." حاييم أمال رأسه قليلاً، يدرسها كما يدرس خريطة معقدة. "ربما"، قال، صوته هادئ لكنه مشحون بالتوتر. "لكن القصص الجيدة لا تنتهي بسهولة."

بدأ الحوار بينهما كلعبة شطرنج، كل خطوة محسوبة، كل كلمة تحمل معنى مزدوجاً. حاول حاييم استجوابها بشكل غير مباشر، يسأل عن كوهين، عن أوراقه، عن سبب وجودها في منزله. "الدكتور رجل مشغول، أليس كذلك؟" قال، وهو يحرك ملعقة القهوة في كوبه دون أن يشرب. "يبدو أن لديه أسراراً كثيرة." هند ابتسمت، ابتسامة لم تصل إلى عينيها. "الجميع لديه أسرار"، ردت، وهي تنظر إليه مباشرة. "حتى الكتاب." كانت كلماتها مثل سيف، حادة لكن مغلفة بالنعومة. حاولت هي الأخرى اختباره، تسأل عن رحلاته، عن القصص التي يكتبها، عن السبب الذي يجعله يظهر ويختفي كشبح. "أنت لا تبدو كرجل يعيش في مكان واحد"، قالت، وهي تميل إلى الأمام، عيناها تبحثان عن صدع في قناعه.

كان التوتر بينهما ملموساً، كأن الهواء في المقهى أصبح كثيفاً بالكهرباء. كلاهما كان يعرف الحقيقة عن الآخر، لكنهما رفضا الكشف عنها. كانت كلماتهما مشفرة، جمل تحمل معاني مخفية، كأنهما يتحدثان بلغة لا يفهمها إلا الجواسيس. "أحياناً، القصص التي نحكيها ليست لنا"، قال حاييم، وهو ينظر إلى كوب القهوة أمامه، كأنه يرى انعكاس ماضيه فيه. "وأحياناً، نحن مجرد شخصيات في قصة شخص آخر." هند أومأت ببطء، كأنها تفهم أكثر مما ينبغي. "وماذا لو كانت القصة خطيرة؟" سألت، صوتها منخفض، كأنها تخاف أن يسمعها العالم. "إذاً علينا أن نكون حذرين في كتابتها"، رد، وكانت عيناها مثبتتين عليها، كأنه يحاول حفظ ملامحها قبل أن يفقدها.

غادرا المقهى معاً، لكن هذه المرة لم يكن هناك مشي تحت المطر أو ضحكات خفيفة. كان هناك صمت ثقيل، كأن كلاهما يعرف أن هذا اللقاء هو الأخير في دبلن. وقفاً أمام جسر ليفي، حيث كانت المياه تعكس أضواء

المدينة كلوحة مكسورة. "لماذا أشعر أنك لن تعود؟" سألت هند، وكانت عيناها تلمعان بالضوء المنعكس من النهر. حاييم لم يجب على الفور. بدلاً من ذلك، أخرج سيجارة من جيبه، لكنه لم يشعلها. "القصص الحقيقية لا تنتهي هنا"، قال أخيراً، وكانت كلماته وعداً وتحذيراً في الوقت ذاته. هند ابتسمت، ابتسامة حزينة كأنها تعرف نهاية القصة قبل أن تبدأ. "أتمنى أن تكون على حق"، قالت، ثم أدارت ظهره واختفت في الضباب.

عاد حاييم إلى شقته، حيث كانت حقيبتة جاهزة بالفعل. لكنه، قبل أن يغادر، أخرج هاتفه المؤقت ونظر إلى صورة التقطها خلصة لهند في المسرح، وهي ترقص تحت الأضواء الخافتة. كانت تبدو كأنها طائر يحاول الطيران في قفص. شعر بثقل في صدره، كأن النمر داخله بدأ يدرك أن الفريسة ليست دائماً ما تبدو عليه. في الطائرة التي أقلته خارج دبلن، جلس بجانب النافذة، يراقب المدينة وهي تتلاشى تحت السحب. كانت السماء سوداء، لا نجوم، لا أمل. تساءل إن كان الحب عدواً أم حليفاً. لم يكن لديه إجابة، لكن النمر داخله كان يهدر، كأنه يعرف أن القصة لم تنته بعد.

الفصل الخامس: لقاء في إسطنبول

المكان: إسطنبول، تركيا

كانت إسطنبول مدينة معلقة بين عالمين، حيث يختلط صوت الأذان برائحة الكباب المشوي وأنفاس البوسفور التي تحمل رذاذ الملح والتاريخ. كانت السماء فوق المدينة مزيجاً من الأزرق العميق والبرتقالي الناري للغروب، كأنها لوحة رسمتها يد إله متردد. حاييم، حاييم ليفي، وصل إلى المدينة قبل ثلاثة أيام، حاملاً هوية جديدة: وفد مصري يُدعى أمير خان، بلحية مزيفة متقنة تُخفي الندبة على فكه، وعينين تحملان ظلال دبلن التي لم يستطع نسيانها. كان في إسطنبول لحضور مؤتمر الأمم المتحدة حول الأمن النووي، وهو غطاء مثالي لتعقب المعادلات السرية التي يطورها الدكتور بنيامين كوهين. لكن في أعماقه، كان يعلم أن هناك شيئاً آخر يدفعه: هند. اسمها كان مثل نعمة عالقة في رأسه، لحن لا يستطيع طرده مهما حاول.

مركز المؤتمرات كان مبنى زجاجياً حديثاً على ضفاف البوسفور، جدرانه تعكس الماء كمرآة سائلة، وأضواؤه الداخلية تلمع كنجوم محاصرة. كان الهواء داخل المبنى يحمل رائحة شمع الأرضيات المصقولة، ممزوجة برائحة العطور باهظة الثمن التي يرتديها الدبلوماسيون والجواسيس المتنكرون. حاييم، مرتدياً بدلة رمادية أنيقة وشارة مزيفة تحمل اسمه الجديد، تحرك بين الحشود كظل، عيناه تفحصان كل وجه، كل حركة. كان قد تلقى تقريراً من الموساد قبل يومين: المعادلات ربما انتقلت إلى طرف ثالث، وكوهين نفسه قد يكون في إسطنبول. لكن كل هذه المعلومات تلاشت عندما رآها.

هند محمد دخلت القاعة كأنها عاصفة نارية. كانت ترتدي ساريًا أحمر يتدفق حولها كلهيب، حوافه الذهبية تلتقط ضوء الثريات وتعكسه كشرارات. شعرها الأسود كان مرفوعاً بعناية، لكن خصلة متمردة تنساقط على جبهتها، كأنها ترفض أي قيود. تحركت بين الحضور بثقة راقصة، خطواتها دقيقة كأنها تمشي على حبل مشدود. كانت تحمل شارة تحدد هويتها كممثلة عن منظمة غير حكومية مصرية، لكن حاييم عرف الحقيقة: كانت هنا كجاسوسة للمخابرات المصرية، بنفس المهمة التي يحملها هو – المعادلات. لكنه لم يكن مستعداً للطريقة التي جعلته يشعر بها رؤيتها: كأن قلبه، النمر الذي دربه على الصمت، قرر أن يهدر بصوت عالٍ.

التقيا في ممر جانبي للمركز، بعيدًا عن أعين الحاضرين. كان الممر مضاءً بضوء خافت، جدرانه مغطاة بلوحات تصور مناظر بحرية قديمة، ورائحة القهوة التركية تملأ الهواء من غرفة مجاورة. وقف حاييم، ظهره إلى الجدار، يتظاهر بأنه يقرأ برنامج المؤتمر. لكنه شعر بها قبل أن يراها – رائحة عطرها، الياسمين الممزوج بالتوابل، وصوت خطواتها الناعمة على الأرضية الرخامية. توقفت على بعد مترين، يديها متشابكتان أمامها، عيناها تلتقطان عينيه كصياد يعرف فريسته. "أمير خان؟" قالت، نبرتها ساخرة، كأنها تعرف أن الاسم مزيف كقناعه. "لم أكن أتوقع رؤيتك هنا."

حاييم أمال رأسه قليلًا، يدرسها كما يدرس خريطة معقدة. "ولا أنا أتوقع رؤيتك"، رد، صوته هادئ لكنه مشحون بالتوتر. "لكن يبدو أن إسطنبول تجمع القصص المثيرة." كانت كلماته مزيجًا من التحدي والشوق، كأنه يحاول قياس المسافة بينهما – ليس المسافة الجسدية، بل تلك التي تفصلهما بين الحب والواجب. هند اقتربت خطوة، الساري الأحمر يتحرك معها كموجة نارية. "القصص المثيرة غالبًا ما تكون خطيرة"، قالت، وكانت عيناها تلمعان بالذكاء والحدس. "خاصة عندما يعرف الجميع النهاية."

كان الحوار بينهما كرقصة على حافة الهاوية، كل كلمة تحمل معنى مزدوجًا، كل نظرة اختبارًا. كلاهما كان يعرف الحقيقة عن الآخر: حاييم، جاسوس الموساد المكلف بسرقة المعادلات؛ هند، جاسوسة المخابرات المصرية المكلفة بحمايتها. لكنهما رفضا الكشف عن أقنعتهم، كأن الحفاظ على الكذبة كان الشيء الوحيد الذي يحميهما من انهيار العالم. حاول حاييم الحفاظ على مسافة عاطفية، يركز على المهمة، على المعادلات، على الخطر الذي يتربص في كل زاوية. لكن عيني هند، الداكنتين كالْبوسفور في الليل، جعلتا ذلك مستحيلًا. كانت تنظر إليه كأنه لغز يستحق الحل، كأنه رجل وليس مجرد جاسوس.

"لماذا أنت هنا؟" سأل حاييم، صوته منخفض، كأنه يخشى أن يسمع الجدران. "نفس السبب الذي أتى بك"، ردت هند، وكانت ابتسامتها صغيرة لكنها حادة كشفرة. "لكن ربما هناك أسباب أخرى." كانت كلماتها مثل رمية سهام، دقيقة ومباشرة، لكنها تركت مجالًا للتأويل. حاييم شعر بقلبه ينبض بشكل أسرع، كأن النمر داخله قرر أن يركض نحو شيء لا يستطيع السيطرة عليه. "الأسباب الأخرى غالبًا ما تكون الأخطر"، قال، وكان ينظر إليها مباشرة، كأنه يحاول أن يرى ما وراء قناعها.

دون كلمات أخرى، تحركا معًا نحو شرفة صغيرة تطل على البوسفور. كان الهواء خارج المبنى باردًا، يحمل رائحة الملح والديزل من السفن التي تعبر المضيق. وقفا جنبًا إلى جنب، أيديهما لا تتلامسان، لكن المسافة بينهما كانت مشحونة بالكهرباء. الماء أمامهما كان يعكس أضواء المدينة، كأنه مرآة مكسورة تحكي قصصًا لم تُرو. "أحيانًا، أتمنى لو كنا شخصين آخرين"، قالت هند فجأة، صوتها هادئ لكنه مليء بالحنين. كانت تنظر إلى البوسفور، لكن عينيها كانتا بعيدتين، كأنها ترى عالمًا آخر، عالمًا حيث لا توجد وكالات، لا معادلات، لا أقنعة. حاييم لم يجب على الفور. بدلاً من ذلك، نظر إلى الماء، ورأى انعكاسهما معًا، كأنهما لوحة لم تكتمل. "وأحيانًا، أتمنى لو كان العالم مختلفًا"، قال أخيرًا، وكانت كلماته اعترافًا لم يكن مستعدًا لقوله.

للحظة، كانا صامتين، يستمعان إلى صوت الماء وهو يصطدم بالضفاف، إلى صوت الريح التي تحمل همسات المدينة. كانا قريبين بما يكفي ليشعر كل منهما بدفع الآخر، لكن بعيدين بما يكفي ليظلا أعداء. حاييم أراد أن يمد يده، أن يلمس يدها، لكنه توقف. كان يعلم أن اللمسة الواحدة قد تكون كافية لتحطيم كل شيء. هند، كأنها

شعرت بتردده، التفتت إليه، وعيناها تلتقطان ضوء القمر المنعكس على الماء. "إذا كنت ستختفي مرة أخرى، أخبرني الآن"، قالت، وكان صوتها مزيجًا من التحدي والضعف. "لن أختفي"، رد حاييم، وكانت الكذبة ناعمة لكنها ثقيلة على لسانه.

فجأة، انطفأت الأضواء في المركز، وغرقت القاعة في الظلام. صوت همهمة الحاضرين ارتفع، ممزوجة بأصوات خطوات متعجلة وهمسات متوترة. حاييم أمسك بذراع هند غريزيًا، يده مشدودة بحزم لكنها لطيفة. "ابقي قريبة"، همس، عيناه تفحصان الظلام كعيني نمر. كان يعلم أن انقطاع الكهرباء ليس صدفة. كان تحذيرًا، أو بداية هجوم. هند لم تقاوم، لكن يدها تحركت إلى جيبها، كأنها تبحث عن شيء – سلاح، ربما، أو جهاز اتصال. في تلك اللحظة، كانا جاسوسين مرة أخرى، لكن الشوق الذي تبادلناه على الشرفة ظل معلقًا في الهواء، كنجمة لا تستطيع السقوط.

الفصل السادس: الهروب من إسطنبول

المكان: إسطنبول، تركيا

الظلام الذي غمر مركز المؤتمرات كان كأنه حبر أسود انسكب على لوحة إسطنبول النابضة، حيث تحولت الأضواء اللامعة إلى فوضى من الهمسات والصراخ المكتوم. كان انقطاع الكهرباء في مركز الأمم المتحدة ليس مجرد عطل تقني؛ كان إشارة، تحذيرًا، كأن المدينة نفسها تعلن بدء معركة. حاييم ليفي، شعر بالخطر قبل أن يسمعه، كما يشعر الصياد برائحة الفريسة في الريح. يده، التي كانت لا تزال تمسك بذراع هند، شددت قبضتها غريزيًا، وعيناها، المدربتان على رؤية الظلال في الظلام، فحصتا الممر الذي كانا يقفان فيه. صوت خطوات ثقيلة، أنفاس متسارعة، ونقرة معدنية خافتة – صوت سلاح يُجهز – كانت كافية لتؤكد شكوكه. "اركضي!" همس بحدة، ودفع هند نحو مخرج طوارئ، جسده يتحرك كدرع بينها وبين الخطر الغامض.

خرجوا إلى شوارع إسطنبول المزدهمة، حيث كانت المدينة تنبض بحياة لا تهدأ حتى في الظلام. رائحة الكباب المشوي والقهوة التركية تملأ الهواء، ممزوجة برائحة الديزل من السيارات التي تمر بسرعة. الأضواء النيونية للمحلات كانت ترقص على الأرصفة المبللة، تعكس ألوانها كأنها لوحة سريالية. حاييم وهند ركضا عبر حشد من السياح والمتسوقين، أجسادهما تنزلق بين الناس كما تنزلق الأسماك في تيار. صوت طلفة ناربية أخرى مزق الهواء خلفهما، تلتها صرخة مختنقة من أحد المارة. "لا تلتفتي!" صرخ حاييم، وهو يسحب هند إلى زقاق ضيق، حيث كانت الجدران مغطاة بملصقات ممزقة وروائح التوابل القديمة. كان قلبه ينبض بسرعة، ليس من الركض، بل من الوعي بأن هند، الجاسوسة التي أصبحت لغزًا في حياته، كانت الآن شريكته في هذا الهروب.

تسلقا سلمًا معدنيًا صدئًا يؤدي إلى أحد الأسطح، أحذيتهم تصدر صوتًا معدنيًا خافتًا يتردد في الزقاق. السطح كان فوضويًا، مليئًا بالأطباق الفضائية القديمة وأسلاك الكهرباء المتشابكة كعش عنكبوت. من هنا، كانت إسطنبول تبدو كبحر من الأضواء، مع مآذن المساجد تخترق السماء كرماح. لكن لم يكن هناك وقت للتأمل. حاييم أمسك بيد هند، وقفزا معًا إلى سطح مجاور، أجسادهما تتحرك بانسجام غريب، كأنهما يرقصان رقصة لم يتدربا عليها من قبل. "من هم؟" سألت هند، صوتها متقطع من الركض، لكن عينيها كانتا حادثتين، كأنها مستعدة للقتال. "لا يهم"، رد حاييم، وهو يفحص الزقاق أسفلهما. "هم يريدوننا، وهذا كافٍ."

بعد مطاردة محمومة عبر الأسطح والأزقة، وصلا إلى منزل آمن فوق محل كباب صغير في حي أكسراي. كان المنزل غرفة صغيرة بجدران متصدعة، تفوح منها رائحة الدهان القديم والدخان. سرير مفرد في الزاوية، طاولة خشبية عليها شمعة محترقة نصفها، ونافذة تطل على شارع مزدحم حيث كانت أصوات الباعة الجائلين تختلط بصوت القطط التي تتجول في الظلام. حاييم أغلق الباب خلفهما، وفحص الغرفة بسرعة، يده لا تزال تمسك بمسدسه. هند، التي كانت تتنفس بصعوبة، انهارت على كرسي، يديها ترتجفان قليلاً. لم تكن ترتجف من الخوف، بل من شيء أعمق، شيء كان يمزقها من الداخل.

"لا أستطيع الاستمرار هكذا"، قالت فجأة، صوتها متكسر كزجاج محطم. رفعت عينيها إلى حاييم، وعيناها تلمعان بالدموع التي رفضت السقوط. "أنا جاسوسة، حاييم. أنا المخابرات المصرية. لكن كلما أراك، أشعر أنني أخون شيئاً أكبر من واجبي." كانت الكلمات مثل اعتراف في محكمة، كل كلمة تقطع شيئاً داخله. حاييم وقف صامتاً، ينظر إليها كأنه يراها لأول مرة. كان يعرف أنها جاسوسة، لكنه لم يكن مستعداً لصدفها، للطريقة التي جعلت بها الحقيقة تبدو كسلاح. جلس بجانبها، المسدس لا يزال في يده، لكنه أبعد نظره عنها، كأنه يخشى أن يرى انعكاسه في عينيها.

"أنا أيضاً متعب"، قال أخيراً، صوته منخفض، كأنه يعترف بخطيئة. "أحياناً، أريد أن أكون مجرد رجل. لا مهمات، لا أفئدة، لا دماء على يدي." توقف، يده تمر على الندبة على فكه، كأنها تذكير بكل المعارك التي خاضها. "لكنني لا أعرف كيف." كانت كلماته مثل جسر، يمتد بينهما عبر الهاوية التي تفصلهما. هند مدت يدها، أصابعها تلمس يده بحذر، كأنها تخاف أن تحرقها. "ربما يمكننا أن نتعلم"، قالت، وكان صوتها ناعماً كالريح التي تهب عبر البوسفور.

للحظة، كانا قريبين، أقرب مما كانا عليه من قبل. حاييم أمال رأسه، جبهته تلمس جبهتها، أنفاسهما تختلطان في الهواء الثقيل برائحة الشمعة المحترقة. كانت لحظة حميمة، كأن العالم توقف ليمنحهما فرصة ليكونا بشراً، لا جواسيس. لكن اللحظة انكسرت بصوت طرق عنيف على الباب. حاييم قفز على قدميه، مسدسه جاهز، بينما تراجع هند، يدها تتحرك بسرعة إلى خصرها حيث كانت تخفي سكيناً صغيرة. "المخابرات المصرية"، همست، عيناها تلمعان بالغضب والخوف. "وجدونا."

الباب انفجر مفتوحاً، ودخل ثلاثة رجال، وجوههم مغطاة بأقنعة سوداء، أسلحتهم موجهة نحوهما. حاييم تحرك كالبرق، قبضته تصطدم بوجه الرجل الأول، مسدسه يطلق رصاصة دقيقة تصيب الثاني في كتفه. لكن ما أثار إعجابه حقاً كان هند. تحركت بسرعة ودقة راقصة، ركلاتها مرنة كأنها تمارس كوريغرافيا، سكينها تلمع في ضوء الشمعة وهي تصيب الرجل الثالث في ذراعه. كانا يقاتلان كفريق، أجسادهما تتحركان بانسجام غريب، كأنهما يعرفان خطوات الآخر قبل أن تبدأ. عندما سقط الرجل الأخير، كان المحل يعج برائحة البارود، والشارع أسفلهما بدأ يمتلئ بأصوات الصراخ والفوضى.

"علينا الذهاب الآن!" صرخ حاييم، وهو يسحب هند من يدها. ركضا عبر الشارع، تسللا بين السيارات المتوقفة حتى وصلا إلى سيارة قديمة مهجورة، مفاتيحها لا تزال في القفل. كانت سيارة فيات زرقاء متآكلة، رائحتها الداخلية مزيج من الجلد القديم والسجائر. حاييم أدار المحرك، والسيارة انطلقت بصوت يشبه السعال. هند جلست بجانبه، يدها لا تزال تمسك بالسكين، عيناها تفحصان الطريق خلفهما. "إلى أين؟" سألت، صوتها ثابت

رغم الفوضى. "مكان لا يعرفونه"، رد حاييم، وهو يضغط على دواسة البنزين، السيارة تندفع عبر شوارع إسطنبول كسهم في الظلام.

كانا يهربان، ليس فقط من رجال المخابرات المصرية، بل من أنفسهما، من الأفقعة التي ارتديها لسنوات. لكن في تلك اللحظة، وهما يركضان معًا، يقاتلان معًا، كانا أقرب إلى الحرية مما كانا عليه من قبل. إسطنبول، بأضوائها وأزقتها، تلاشت خلفهما، لكن الطريق أمامهما كان مجهولًا، كأنه صفحة بيضاء تنتظر أن تُكتب.

الفصل السابع: ملاذ في أستانا

المكان: أستانا، كازاخستان

أستانا كانت مدينة تبدو وكأنها ولدت من حلم مستقبلي، حيث تتداخل ناطحات السحاب الزجاجية مع البرد القارس كأنها تنتمي إلى عالم آخر. الأضواء المنعكسة على المباني كانت تشبه نجومًا محطمة، متناثرة على الأرض بدلاً من السماء. الرياح التي تجتاح المدينة كانت تحمل عواءً خافتًا، كأنها تهمس بأسرار السهوب الممتدة حولها. حاييم ليفي، وهند محمد، وصلا إلى هذه المدينة بعد هروبهما المحموم من إسطنبول، كأنهما طيران هاربان من عاصفة. كانا يحملان جروحًا غير مرئية: جروح الخيانة، الشك، والحب الذي لا يزال ينمو رغم كل المحاولات لقتله. لكن في أستانا، للحظة عابرة، قررا أن يتظاهرا بأنهما مجرد رجل وامرأة، وليسا جاسوسين مطلوبين من وكالتيهما.

استأجرا شقة صغيرة في مبنى رمادي في حي هادئ بعيد عن صخب وسط المدينة. كانت الشقة متواضعة، جدرانها بيضاء بلا زينة، باستثناء بقعة رطوبة في الزاوية تشبه خريطة بلد لم يولد بعد. الأثاث كان قليلًا: سرير مفرد ببطانية صوفية خشنة، طاولة خشبية متذبذبة، وموقد غاز قديم يصدر أصواتًا كأنفاس رجل عجوز. النافذة الوحيدة كانت تطل على شارع مغطى بالثلج الخفيف، حيث كانت الأضواء المنعكسة من المباني المجاورة ترسم أنماطًا متغيرة على الزجاج. حاييم أغلق الستائر بحركة حذرة، كأنه يحاول إغلاق العالم الخارجي، لكن البرد تسلل إلى الغرفة مثل ضيف غير مدعو.

كانا يعلمان أن وقتهما في أستانا محدود، كأن الزمن نفسه كان يطاردهما. جلسا على الأرض، على بساط صغير باهت، يحاولان التخطيط لخطوتهما التالية. كانا قد تلقيا معلومات جديدة من مصادر مشبوهة: المعادلات التي يطاردها كل من الموساد والمخابرات المصرية لم تعد بحوزة بنيامين كوهين. كانت قد أرسلت إلى طرف ثالث غامض، ربما منظمة دولية، أو ربما تاجر أسلحة يعمل في الظل. هذه المعلومة جعلت المهمة أكثر تعقيدًا، لكنها أيضًا منحتهما لحظة للتنفس، كأن العالم قرر أن يمنحهما استراحة قصيرة.

في تلك اللحظات الهادئة، حاولا أن يجدا ملاذًا في الأشياء البسيطة. حاييم أخرج مجموعة أوراق لعب قديمة من حقيبته، أوراق متأكلة الحواف، كأنها تحمل قصصًا من حياته السابقة. "هل لعبت الرامي من قبل؟" سأل، وهو يوزع الأوراق على الطاولة. هند، التي كانت جالسة متقاطعة الساقين، ابتسمت ابتسامة خفيفة، كأنها تتذكر شيئًا من طفولتها. "أمي كانت تلعبها مع الجيران في القاهرة"، قالت، وهي تمسك بالأوراق بحذر، كأنها تخاف أن تكشف عن شيء أكثر من مجرد لعبة. علمها حاييم القواعد، صوته هادئ كما لو كان يحكي قصة قبل النوم. كانا يضحكان عندما أخطأت هند في ترتيب الأوراق، وكان ضحكهما نادرًا، كأنه كنز مسروق من عالم آخر.

في المقابل، أصرت هند على تعليمه خطوات رقص بسيطة. أشعلت جهاز راديو قديم وجدته في الشقة، وبحثت عن محطة تبث موسيقى كلاسيكية هادئة، مزيج من الكمان والبيانو يبدو كأنه ينتمي إلى عصر آخر. وقفت في وسط الغرفة، يدها ممدودة نحوه. "لا يمكنك أن تكون في أستانا دون أن ترقص"، قالت، وعيناها تلمعان بشيء يشبه المرح، لكن فيه ظل من الحزن. حاييم، الذي كان معتادًا على الحركة فقط في القتال أو المطاردة، تردد للحظة. لكن عندما أمسك يدها، شعر بدفء أصابعها، كأنها الشيء الوحيد الحي في هذه المدينة الباردة. علّمته خطوات بسيطة، حركات دائرية بطيئة، وكانا يتحركان في مساحة الغرفة الصغيرة، أجسادهما قريبة لكنها لا تتلامس تمامًا. "أنت لست سيئًا لجاسوس"، قالت هند، وضحكت عندما تعثر في خطوة. "وأنت لست سيئًا لمطاردة"، رد حاييم، وكانت ابتسامته نادرة، كأنها نجمة ظهرت فجأة في سماء أستانا.

في تلك الليلة، جلسا على السرير، يتشاركان قصصًا من طفولتهما، كأنهما يحاولان إعادة كتابة ماضيهما. تحدث حاييم عن قرينته في تل أبيب، عن الليالي التي قضاها يراقب النجوم مع أمه، التي كانت تحكي له عن أبطال يقاتلون من أجل الحرية. "كنت أظن أنني سأكون واحدًا منهم"، قال، صوته منخفض، كأنه يعترف بخيبة أمل لم يشاركها مع أحد من قبل. هند تحدثت عن القاهرة، عن أمها التي كانت ترقص في الفناء تحت ضوء القمر، وعن الديون التي تركتها وراءها كإرث ثقيل. "كنت أريد أن أكون مثلها"، قالت، وهي تنظر إلى الشمعة على الطاولة، اللهب يتراقص في عينيها. "لكنني أصبحت شيئًا آخر." كانت الحقيقة معلقة بينهما، ثقيلة كالثلج الذي يغطي المدينة: كلاهما مطلوب من وكالتيهما، الموساد والمخابرات المصرية، وكلاهما يعيش حياة لا تسمح بالأحلام.

في اليوم التالي، بينما كانا يناقشان خطة لتعقب الطرف الثالث الذي استلم المعادلات، لاحظ حاييم شيئًا غريبًا. ضوء صغير، بالكاد مرئي، يومض في زاوية السقف. اقترب بحذر، قلبه ينبض بسرعة كأن الصياد داخله استيقظ. كانت كاميرا مراقبة صغيرة، مخفية بمهارة خلف مصباح سقف متصدع. "هند"، قال، صوته منخفض لكنه حاد كشفرة. نظرت إليه، ثم إلى الكاميرا، وتجمدت. "وجدونا"، همست، وكانت عيناها تلمعان بالغضب أكثر من الخوف. لم يكن هناك وقت للنقاش. حطم حاييم الكاميرا بضربة سريعة، وسحب هند من يدها. "خذي حقيبتك"، قال، وهو يفحص النافذة. الشارع أسفلهما كان هادئًا، لكن الهدوء كان مخادعًا، كأن المدينة كانت تنتظر لتبتلعهما.

جمعًا أغراضهما بسرعة، قلبهما تنبضان بنفس الإيقاع المحموم. حاييم ألقى نظرة أخيرة على الشقة، على الطاولة حيث لعبا الرامي، على الأرض حيث رقصا كأنهما أحرار. كانت تلك اللحظات مثل حلم قصير، والآن كان الواقع يطاردهما مرة أخرى. خرجا من الشقة، نزلا السلالم بسرعة، واندفعا إلى شوارع أستانا الباردة. الثلج كان يتساقط بخفة، يغطي خطواتهما كأنه يحاول إخفاء أثرهما. لكن حاييم وهند كانا يعلمان أن لا مكان آمن الآن، وأن الهرب هو الخيار الوحيد.

الفصل الثامن: هافانا، ملاذ العشاق

المكان: هافانا، كوبا

هافانا كانت مدينة تنبض بالحياة كأغنية سالسا، حيث تتداخل ألوان المباني الاستعمارية المتقشرة مع رائحة الروم الحلوة والبحر المالح. كانت الشوارع تعج بالحركة: سيارات شيفروليه قديمة تصدر أصواتًا كأنها تتنفس، بانجو الفاكهة ينادون بصوت عالٍ، وأصوات الموسيقى تتسرب من كل زاوية كأنها دم المدينة. الشمس كانت تحرق الأرصفة، لكن نسيم البحر كان يحمل لمسة من الراحة، كأنه يهمس بوعود بالهروب. حاييم ليفي، وهند محمد، وصلا إلى هافانا بعد رحلة مضيئة من أستانا، بحثًا عن ملاذ مؤقت من العالم الذي يطاردهما. هنا، في هذه المدينة التي تبدو منفصلة عن الزمن، قررا أن يتظاهرا، ولو للحظات، بأنهما ليسا جاسوسين، بل مجرد زوجين عاديين، عاشقين ضائعين في إيقاع السالسا.

استأجرا غرفة صغيرة فوق متجر لبيع السيجار في حي هافانا القديمة. كانت الغرفة متواضعة، جدرانها مغطاة بطلاء أزرق باهت يتقشر كجلد ثعبان قديم، وسقفها مزين بمروحة خشبية تدور ببطء كأنها تتنهد. السرير كان قديمًا، مرتبته تصدر أصواتًا خافتة، لكن البطانيات القطنية كانت نظيفة، تفوح منها رائحة الصابون والشمس. النافذة المطلّة على الشارع كانت مفتوحة دائمًا، تسمح بدخول أصوات المدينة: ضحكات الأطفال، إيقاعات الكونغوا، وصوت الأمواج البعيدة. حاييم، الذي اعتاد العيش في الظلال، وجد نفسه مفتونًا بهذه المدينة التي لا تخفي شيئًا. وهند، التي كانت دائمًا مشدودة كوتر قوس، بدأت تتعلم كيف تضحك دون خوف، كأن هافانا كانت دواءً لروحها.

في أول ليلة لهما، قررا استكشاف المدينة. خرجا إلى المليون، الجدار البحري الشهير الذي يمتد على طول ساحل هافانا، حيث كان البحر يصطدم بالصخور بإيقاع ثابت، كأنه يحكي قصة لا تنتهي. كان الغروب يرسم السماء بلون المانجو الناضج، وكانا يمشيان جنبًا إلى جنب، أيديهما لا تتلامسان لكن المسافة بينهما كانت مشحونة بشوق صامت. جلسا على الجدار، أرجلهم تتدليان فوق الماء، وتحدثا عن حلم لم يجرؤا على تصديقه: حياة جديدة، بعيدًا عن الجاسوسية، بعيدًا عن الأفق. "تخيل لو كنا نعيش هنا"، قالت هند، وهي تنظر إلى البحر، شعرها الأسود يتطاير مع الريح. "أفتح متجرًا صغيرًا للرقص، وأنت... ماذا ستفعل؟" حاييم ابتسم، ابتسامة نادرة جعلت الندبة على فكه تبدو أقل قسوة. "ربما أصبح صيادًا"، قال، ناظرًا إلى الأفق. "أو ربما أتعلم السالسا."

في تلك الليلة، أخذته هند إلى نادٍ صغير في الزاوية، حيث كانت الموسيقى تعزف بإيقاع السالسا الحار، والأضواء الخافتة ترسم ظلالًا متمائلة على الجدران. كان النادي مكتظًا، يعج برائحة الروم والعرق والطور الرخيصة. هند، مرتدية فستانًا أحمر بسيطًا يعانق جسدها كجلد ثانٍ، أمسكت بيده وسحبته إلى حلبة الرقص. "لا تفكر، فقط تحرك"، قالت، عيناها تلمعان بالمرح والتحدي. حاييم، الذي كان معتادًا على الحركة في القتال لا الرقص، شعر بالتردد للحظة. لكن عندما وضعت يدها على كتفه، ويد أخرى على خصره، وجد نفسه يتبعها. تحركا معًا، خطواتهما مترددة في البداية، لكن إيقاع السالسا كان معديًا، كأنه يسحبهما إلى عالم آخر. كانت هند ترقص بسلاسة، جسدها يتحرك كموجة، بينما كان حاييم يحاول مواكبتها، ضحكتهما تمتزج بصوت الموسيقى. للحظة، كانا مجرد زوجين، ليسا جاسوسين، ليسا أعداء، فقط رجل وامرأة يرقصان تحت أضواء هافانا.

اللحظة الحميمة:

في الليلة الثالثة، عادا إلى الغرفة بعد يوم طويل قضياه في استكشاف الأسواق المحلية. كان الهواء في الغرفة دافئًا، مشبعًا برائحة السيجار من المتجر أسفلهم ونسمات البحر التي تتسلل من النافذة. كانا متعبين، لكن التعب كان مختلفًا هذه المرة – ليس تعب المطاردة، بل تعب الحياة التي حاولا عيشها ولو للحظات. جلسا على السرير، أجسادهما قريبة، وكانت الشمس قد غربت تاركة الغرفة مضاءة بضوء خافت من مصباح زيتي على

الطاولة. هند، التي كانت ترتدي قميصًا قطنيًا خفيًا وبنطالًا قصيرًا، نظرت إليه، عيناها تلمعان بالشوق والخوف. "حاييم"، قالت، نادرًا ما تستخدم اسمه الحقيقي، "هل يمكننا حقًا أن نكون هكذا؟" كانت كلماتها مثل سؤال لم يكن لديه إجابة له.

حاييم لم يجب بالكلمات. بدلاً من ذلك، مد يده، أصابعه تلمس خدها بحنان لم يكن يعرف أنه يملكه. كانت بشرتها ناعمة، دافئة، كأنها تحمل شمس هافانا بداخلها. اقترب، شفتاه تلتقيان بشفتيها في قبلة بطيئة، عميقة، كأنها تحمل كل الكلمات التي لم يستطع قولها. هند استجابت، يداها تنزلان إلى كتفيه، أصابعها تعتصر قميصه كأنها تتشبث بحلم. القبلة تصاعدت، أصبحت أكثر جوعًا، أكثر إلحاحًا. حاييم رفعها بحذر، وضعها على السرير، جسده يغطي جسدها بحركة طبيعية، كأنهما يتحركان في رقصة أخرى. أزال قميصها ببطء، أصابعه تتبعان منحنيات كتفيه، ثم خصرها، كأنه يكتشف خريطة جديدة. كانت بشرتها ناعمة، مضيئة تحت ضوء المصباح، والندبة الصغيرة على يدها اليسرى بدت كعلامة سرية يعرفها هو وحده.

هند، بدورها، سحبت قميصه، كاشفة عن صدره العضلي المليء بالندوب، كل واحدة تحكي قصة معركة. أصابعها تتبعت هذه الندوب بحنان، كأنها تحاول قراءة ماضيه. "أنت لست مجرد جاسوس"، همست، وكانت عيناها تلمعان بالدموع التي لم تسقط. تحركت يداها إلى حزامه، فكتة بحركة بطيئة، وكأنها تخاف من سرعة اللحظة. حاييم ساعدها، وسحب بنطالها، كاشفًا عن ساقيهما الطويلتين، الناعمتين، اللتان كانتا ترقصان بسلاسة في نادي السالسا. استلقيا معًا، أجسادهما متشابكة، جلدتهما يحترق بالرغبة. حاييم تقلبها بحذر، فأصبحت هي فوقه، شعرها الأسود يتساقط على صدره كستارة من الحرير. تحركت بايقاع راقصة، بطيئة في البداية، ثم أسرع، أيديهما متشابكتين، أنفاسهما تتسارع كإيقاع طبل. كانا يتحركان معًا، كأنهما يحاولان نسيان العالم، أجسادهما تتحدث بلغة لا تحتاج إلى كلمات. اللحظة كانت خام، عاطفية، كأنها محاولة أخيرة للاحتفاظ بشيء حقيقي في عالم من الأكاذيب.

لكن الواقع، كالعادة، لم يتركهما. في صباح اليوم التالي، بينما كانا يتجولان في سوق محلي مليء بروائح المانجو والتوابل، لاحظ حاييم انعكاسًا غريبًا في زجاج متجر. كاميرا مراقبة، مخفية بعناية خلف لافتة إعلانية. قلبه توقف للحظة، وأمسك بيد هند، يدها لا تزال دافئة من ليلتهما. "لا تتطري"، همس، وهو يسحبها إلى زقاق جانبي. لكن كان الوقت قد فات. صوت خطوات ثقيلة، وظهور ثلاثة رجال يرتدون ملابس مدنية لكن أسلحتهم مخفية بمهارة تحت معاطفهم، أكد شكوكه. كانوا رجال المخابرات المصرية، وكانوا هنا من أجل هند.

تحول الزقاق إلى ساحة معركة. حاييم تحرك كالصياد، قبضته تصطمم بوجه الرجل الأول، بينما ركل الثاني في صدره، أرسله إلى الحائط. هند، التي أثبتت في إسطنبول أنها ليست مجرد راقصة، استخدمت سكينها الصغيرة بحركة دقيقة، تصيب ذراع الرجل الثالث. لكن رصاصة طائشة أصابت كتفها، جرحًا سطحيًا لكنه كافٍ لجعل الدم يتساقط على فستانها الأحمر. صرخت هند بصوت خافت، لكنها استمرت في القتال، عيناها تلمعان بالغضب. حاييم، عندما رأى الدم، شعر بشيء ينفجر داخله. كان الصياد داخله يهدر، غضبه كالنار التي تحرق كل شيء. أنهى القتال بضربة سريعة، كسر معصم الرجل الأخير، ثم هرع إلى هند، يده تمسك كتفها المجرّوح. "أنت بخير"، قال، صوته خشن، كأنه يحاول إقناع نفسه أكثر منها.

سحبها إلى سيارة أجرة متوقفة، واندفعا بعيدًا عن السوق، تاركين خلفهما فوضى من الصرخات والباعة المتحيرين. في السيارة، ضمد حاييم جرحها بقطعة قماش مزقها من قميصه، عيناها مليئتان بالقلق والغضب. "لن

أتركهم يؤذونك مرة أخرى." قال، وكانت كلماته وعدًا، لكنها أيضًا تحذير من الرجل الذي أصبح أكثر من مجرد جاسوس. هند، رغم الألم، وضعت يدها على يده، وابتسمت ابتسامة ضعيفة. "أنت لا تستطيع حمايتي دائمًا"، قالت، لكن عينيها قالتا شيئًا آخر: أنها تثق به، رغم كل شيء.

الفصل التاسع: الطلقة الأخيرة

المكان: هافانا، كوبا

هافانا، في ساعات الفجر الأولى، كانت كأنها لوحة نصف مكتملة، حيث يمتزج الضوء البرتقالي الناعم للشمس المشرقة مع ظلال المباني الاستعمارية المتآكلة. الهواء كان مشبعًا برائحة البحر المالحة ودخان السيجار المنبعث من النوافذ المفتوحة، بينما كانت أصوات المدينة لا تزال نائمة، باستثناء همهمة بعيدة لمحركات السيارات القديمة وبضع صيحات الديكة في الأحياء الريفية. حاييم ليفي، وهند محمد، كانا يعيشان على حافة الزمن، كل لحظة في هافانا كانت مسروقة من عالم لا يرحم. بعد المواجهة العنيفة في السوق، كانا يعلمان أن المدينة التي احتضنتهما كعاشقين لم تعد آمنة. لكن الخطر الحقيقي لم يكن في شوارع هافانا، بل في رسالة وصلت إلى حاييم في تلك الليلة.

كانا في غرفتهما فوق متجر السيجار، الغرفة التي شهدت لحظتهما الحميمة والرقص تحت ضوء المصباح الزيتي. حاييم كان يجلس على حافة السرير، يفحص هاتفه الموقت، عندما وصلت الرسالة المشفرة من زميله في الموساد. كانت الرسالة قصيرة لكنها كالرصاصة: "الموساد والمخابرات المصرية اتفقتا. أنتما خطر على الجميع. سيتم القضاء عليكما. اهربا الآن." كانت الكلمات مثل سكين تقطع الهواء الدافئ في الغرفة. حاييم أغلق الهاتف، عيناه مثبتتان على الجدار الأزرق المتقشر، كأنه يحاول استيعاب الخيانة. لم يكن مفاجئًا أن تتخلى الوكالات عن عملائها — كان ذلك جزءًا من اللعبة — لكن الشعور بالهجران كان ثقیلاً، كأنه حجر يسحب إلى قاع البحر.

هند، التي كانت تجلس على الأرض، تضمد جرح كتفها بضمادة مؤقتة، لاحظت التغيير في وجهه. "ماذا حدث؟" سألت، صوتها هادئ لكنه حاد، كأنها تعرف أن الأخبار ليست جيدة. حاييم نظر إليها، عيناها الداكنتين كالبحر في الليل، وشعر بتقل الحقيقة. "لقد أصبحنا أهدأ"، قال، صوته خشن كالرمل. "وكالتينا تريداننا أمواتًا." هند تجمدت للحظة، يدها تتوقف عن لف الضمادة. ثم ضحكت، ضحكة قصيرة مريرة. "كنت أظن أننا سنحصل على يوم آخر على الأقل"، قالت، وكانت عيناها تلمعان بالغضب والحزن. "ماذا سنفعل؟"

خططا لهروب أخير. كان لدى حاييم جهة اتصال قديمة في هافانا، رجل يُدعى كارلوس، مهرب سابق تحول إلى ميكانيكي طائرات. كان كارلوس يملك طائرة صغيرة، سيسنيا قديمة، مخبأة في مدرج ترابي على مشارف المدينة. كانت الخطة بسيطة: الوصول إلى المدرج قبل الفجر، والطيران إلى مكان لا تعرفه الوكالات. لكن البساطة في عالم الجواسيس كانت دائمًا وهمًا. جمعا أغراضهما بسرعة — حقيبة صغيرة تحتوي على جوازات سفر مزيفة، بعض النقود، ومسدس حاييم — وخرجا إلى الشوارع المظلمة، حيث كان الهواء يحمل رائحة الملح والخوف.

المدرج الترابي كان على بعد ساعة من المدينة، في منطقة ريفية تحيط بها حقول قصب السكر. كانت الطائرة، سيسنيا ذات محرك واحد، تقف في الظلام كطائر جريح، أجنحتها متأكلة لكنها لا تزال قادرة على الطيران. كارلوس، رجل قصير ببشرة محروقة من الشمس، استقبلهما بصمت، عيناه تفحصان الظلام كأنه يتوقع الخطر. "الوقود جاهز"، قال، وهو يشير إلى الطائرة. "لكنكما بحاجة إلى التحرك بسرعة." حاييم أوما، لكنه شعر بشيء في الهواء – رائحة الخطر، مثل رائحة المعدن قبل العاصفة. أمسك بيد هند، وسحبها نحو الطائرة، لكن قبل أن يصلا إلى الباب، انفجر الظلام بصوت طلقات نارية.

كانوا أربعة رجال، ظلال سوداء تتحرك بسرعة من بين حقول القصب. كانوا رجال المخابرات المصرية، وربما الموساد، أو ربما مزيج من الاثنين – لم يعد الأمر مهمًا. حاييم دفع هند خلف الطائرة، جسده يغطيها كدرع. أطلق رصاصتين من مسدسه، أصاب أحدهما في الصدر، لكن الرجال كانوا مدربين، يتحركون كالذئاب. هند، رغم جرحها، أخرجت سكينها الصغيرة، وعيناها تلمعان بالتصميم. "اذهبي إلى الطائرة!" صرخ حاييم، لكنها رفضت، تقاثل بجانبه بحركات راقصة دقيقة، سكينها تلمع في ضوء الفجر.

في لحظة درامية، أدرك حاييم أن الطائرة لن تنتظر. كان هناك الكثير من الرجال، والمزيد قادمون من بعيد – أصوات محركات السيارات كانت تقترب. نظر إلى هند، عينيها مليئتان بالخوف والعزيمة، واتخذ قرارًا لم يكن مستعدًا له. "اركضي!" صرخ، وهو يدفعها نحو باب الطائرة. لكن عندما أطلق رجل من الظلال رصاصة، تحرك حاييم غريزيًا، جسده يعترض طريق الرصاصة. شعر بألم حارق في كتفه، لكنه تظاهر بأن الإصابة أسوأ، سقط على ركبتيه، يده تمسك صدره كأن الرصاصة اخترقت قلبه. "اذهبي، هند!" صرخ، صوته متكسر، عيناها مثبتتان عليها. "لا تتركيني!" ردت هند، دموعها تسقط كالطر، لكن كارلوس سحبها إلى الطائرة، وهو يصرخ: "لا وقت!"

هند صعدت إلى الطائرة، يداها ترتجفان وهي تمسك بالمقعد، عيناها مثبتتان على حاييم وهو ملقى على الأرض. كانت تصرخ باسمه، صوتها يختلط بصوت المحرك وهو يدوي. الطائرة بدأت تتحرك، عجلاها تثير الغبار على المدرج الترابي. حاييم، ملقى على الأرض، رفع رأسه ببطء، عيناه تتبعان الطائرة وهي تطلع، صورة هند في النافذة محفورة في ذهنه. ابتسم، ابتسامة صغيرة مليئة بالألم والرضا. كان الجرح في كتفه حقيقيًا، لكنه لم يكن مميتًا – لقد تظاهر، لأنه كان يعلم أنها لن تتركه إلا إذا اعتقدت أنه مات. كانت هذه التضحية الوحيدة التي يستطيع تقديمها: أن يعطيها فرصة للحياة، حتى لو كانت تعني أن يفقدها إلى الأبد.

الطائرة اختفت في سماء الفجر، تاركة خلفها خطأ من الغبار والضوء. حاييم ظل ملقى على الأرض، يستمع إلى صوت أنفاسه، إلى صوت الرجال وهم يقتربون. لكنه لم يكن خائفًا. كان الصياد داخله هادئًا لأول مرة، كأنه يعرف أن الحب، حتى لو كان لحظة عابرة، كان يستحق كل هذا. أغلق عينيهِ، وصورة هند، راقصة تحت المطر، ظلت محفورة خلف جفنيه، كأنها النجمة الوحيدة في سماء حياته.

الفصل العاشر: أسطورة الصياد

المكان: البندقية، إيطاليا؛ كيب تاون، جنوب إفريقيا؛ زيوريخ، سويسرا

سنوات مرت كالريح التي تعبر القارات، تحمل معها أسرارًا لا تُروى إلا في الهمسات. حاييم ليفي، وهند محمد، تحولوا إلى أسطورة في عالم الجاسوسية، كأنهما شبحان يتحركان في الظلال، لا يتركان وراءهما سوى قصص متفرقة وشائعات تتردد في أروقة وكالات الاستخبارات. لم يعد أحد يعرف أسماءهما الحقيقية، لكن الجميع سمع عنهما: رجل بندبة على فكه، عيناه كالصياح في الليل، وامرأة بعيون تحمل عاصفة النيل، ترقص كأنها تتحدى العالم. كانا يظهران ويختفيان في مدن مختلفة، كأنهما يكتبان قصة حب لا تنتهي، حيث الحب هو السلاح الوحيد الذي لا يحتاج إلى ذخيرة.

البندقية: رقصة على الجسر

في البندقية، حيث تتدفق القنوات كأوردة المدينة، شوهد حاييم وهند على جسر رياتو في ليلة ضبابية. كانت الأضواء الخافتة تعكس على الماء كنجوم ساقطة، ورائحة الملح والبندق المحمص تملأ الهواء. حاييم، مرتديًا معطفًا أسود طويلًا يخفي الندبة على فكه، كان يقف بجانب هند، التي كانت ترتدي فستانًا أخضر داكنًا يعانق جسدها كموجة. كانا يرقصان ببطء على إيقاع كمان بعيد، أيديهما متشابكتين، خطواتهما خفيفة كأنهما يطفوان فوق الحجارة القديمة. السياح كانوا يظنونهما عاشقين عاديين، لكن العيون التي تتبعهما من بعيد عرفت أن هذين الشخصين ليسا عاديين.

في تلك الليلة، عادا إلى غرفة صغيرة استأجراها فوق مقهى مهجور يطل على القناة. كانت الغرفة ضيقة، جدرانها مغطاة بورق جدران زهري باهت، والنافذة مفتوحة تسمح بدخول نسيم البندقية البارد. السرير كان صغيرًا، لكنه كان كافيًا لهما. هند أغلقت الباب، وابتمت ابتسامة لعبوية، عيناها تلمعان تحت ضوء المصباح الوحيد. "هل تعتقد أننا سنظل هكذا إلى الأبد؟" سألت، وهي تزيل وشاحها، كاشفة عن كتفيها الناعمين. حاييم اقترب، أصابعه تتبعان خط رقبتها، كأنه يرسم خريطة جديدة. "طالما أنت معي، لا يهم الأبد"، رد، صوته خشن لكنه مليء بالدفع.

بدأت القبلية ببطء، شفتاه على شفتيها، طعمها مزيج من النبيذ الذي شرباه في العشاء ورائحة البحر. هند سحبت قميصه، أصابعها تتحرك بسرعة وهي تكشف عن صدره العضلي، الندوب عليه مثل قصص محفورة على جلده. حاييم رفع فستانها، كاشفًا عن ساقبيها الطويلتين، ثم خصرها، حتى أصبحت عارية أمامه، بشرتها تلمع كاللؤلؤ تحت الضوء الخافت. استلقيا على السرير، أجسادهما متشابكة في الوضع التبشيري، حاييم فوقها، يديه تدعان جسده بينما كانت عيناه مثبتتين على عينيها. تحركا معًا، بإيقاع بطيء في البداية، ثم أسرع، أنفاسهما تتسارع كإيقاع الموسيقى البعيدة. هند، بشغفها، تقلبته فأصبحت هي الفارسة، شعرها الأسود يتساقط على كتفيها، يديها تضغطان على صدره بينما كانت تتحرك بحرية، جسدها يرقص كما لو كانت على خشبة مسرح. حاييم، مقتوئًا بها، مد يده ليمسك ثدييها، أصابعه تتحسسان الحلمات بلطف، مما جعلها تتأوه بهدوء.

تقلبا مرة أخرى إلى الوضع الجانبي، هند مستلقية على جنبها، حاييم خلفها، يده تمسك خصرها بينما كانا يتحركان في انسجام تام. كانت أنفاسهما تملأ الغرفة، ممزوجة بصوت الماء في القناة أسفلهما. في لحظة شغف، تحول الوضع إلى الكلب، هند على يديها وركبتيها، حاييم خلفها، يديه تمسكان وركبيها بحزم. كانا يتحركان كأنهما في معركة، لكنها معركة من الحب، كل حركة تعبر عن رغبة لا يمكن كبحها. أنهيا الليلة في الوضع الفارسة المعكوسة، هند تواجه القناة، ظهرها إليه، بينما كانت يدها تتجولان على ظهرها، أصابعه تتابعان عمودها الفقري. كانت اللحظة خام، عاطفية، كأنها محاولة لإثبات أنهما ما زالا أحياء، أن الحب بينهما أقوى من الأفتنة التي ارتدياها.

كيب تاون: دروس الملائكة

في كيب تاون، حيث يلتقي المحيط الأطلسي بجبال تيبيل المهيبة، شوهد حايمم وهند في حي فقير، يعلمان مجموعة من الأطفال الملائكة في ساحة ترابية. كانت الشمس تحرق الأرض، لكن نسيم البحر كان يخفف الحرارة، يحمل معه رائحة الأعشاب البحرية والملح. حايمم، مرتدياً قميصاً قطنياً مبللاً بالعرق، كان يواجه الأطفال بحركات دقيقة، يعلمهم كيف يحمون أنفسهم. هند، ببنتال جينز وقميص خفيف، كانت تضحك وهي تساعد طفلة صغيرة على ربط قفازاتها. كانا يبدوان كزوجين عاديين، لكن العيون التي تتبعهما من بعيد عرفت أن هذين الشخصين هما الصياد والراقصة.

في إحدى الليالي، عادا إلى كوخ صغير استأجراه على شاطئ خليج كامبس. كان الكوخ متواضعاً، جدرانها من الخشب المطلي بالأبيض، وسقفه من القش. النافذة المظلة على البحر كانت مفتوحة، تسمح بدخول صوت الأمواج كأغنية مهدئة. بعد عشاء بسيط من السمك المشوي والخبز المحلي، جلسا على الأرض، أجسادهما متعبة لكن مليئة بالحياة. هند أشعلت شمعة، وكان ضوءها الخافت يلقي ظلالاً على جدران الكوخ. "أنت جيد مع الأطفال"، قالت، وهي تميل نحوه، شعرها الأسود يتساقط على كتفها. حايمم ابتسم، ومد يده ليمسك يدها. "وأنت تجعلينهم يؤمنون بالأحلام"، رد، صوته هادئ لكنه مليء بالإعجاب.

بدأت اللحظة الحميمة عندما اقتربت هند، شفتاهما تلتقيان بشفتيه في قبلة عميقة، طعمها مالح من نسيم البحر. أصابعها تسللت إلى قميصه، تزيله ببطء، بينما كانت يدها تتحركان إلى فخذيهما، يرفعان تنورتها القصيرة. استلقيا على بساط منسوج، هند فوقه في الوضع الفارسة، جسدها يتحرك بإيقاع الأمواج أسفلهما. حايمم، مفتوناً بها، مد يده ليمسك ثدييهما، أصابعه تتحسسان الحلمات بحركات دائرية، مما جعلها تتأوه بنعومة. تحولوا إلى الوضع الكلبى الكسلان، هند مستلقية على بطنها، حايمم خلفها، حركاتهما بطيئة، كأنهما يحاولان إطالة اللحظة. ثم، في لحظة شغف، جربتا الوضع الشرجي، بحذر وتفاهم، أجسادهما متزامنة في رقصة من الثقة والرغبة. كانت أنفاسهما تملأ الكوخ، ممزوجة بصوت الأمواج، كأن البحر نفسه كان يحتفل بحبهما.

زيوريخ: ورود في الشتاء

في زيوريخ، حيث يغطي الثلج المدينة كبطانية بيضاء، شوهد حايمم وهند في سوق زهور صغير على ضفاف بحيرة زيوريخ. كان الهواء بارداً، يحمل رائحة الصنوبر والشوكولاتة السويسرية. حايمم، مرتدياً معطفاً ثقيلاً، كان يحمل باقة من الورد الحمراء، يقدمها إلى هند التي كانت ترتدي معطفاً أسود طويلاً ووشاحاً صوفياً. كانا يبدوان كزوجين عاديين، لكن الطريقة التي كانا يفحصان الزوايا بعينيهما، كأنهما يبحثان عن كاميرات خفية، كشفت عن طبيعتهما الحقيقية.

في غرفتهما في فندق صغير، كانت النوافذ مغطاة بستائر مخملية، والمدفأة تصدر صوتاً خافتاً يملأ الغرفة بالدفء. بعد يوم طويل، جلسا على الأريكة، هند تمسك بكأس نبيذ، بينما كان حايمم ينظر إليها كأنها الشيء الوحيد الحقيقي في العالم. "أنت تجعلني أنسى البرد"، قالت، وهي تميل نحوه، شفتاهما تلتقيان بشفتيه. القبلة تحولت إلى شغف، هند تقدم له هاندجوب بلطف، أصابعها تتحركان بخبرة، مما جعل حايمم يتأوه بهدوء. رد بالمثل، شفتاه تتحركان إلى رقبتهما، ثم ثدييهما، يلحس الحلمات بحركات دائرية بطيئة، ثم نزل إلى أسفل، شفتاه تتذوقان شفاه كسها، لسانه يتحرك بحركات ناعمة جعلتها ترتعش. هند، بدورها، أعطته بلوجوب، شفتاهما تحيطان بقضيبه بحركات بطيئة ثم أسرع، حتى أصبحت أنفاسهما متقطعة. استلقيا على السرير، في الوضع

التبشيري، حايم فوقها، يتحركان معًا كأنهما يكتبان قصة لا تنتهي. تحولاً إلى الوضع الجانبي، هند مستلقية على جنبها، حايم خلفها، أجسادهما متلاصقة كأن البرد لا يمكن أن يفصلهما.

مدينة بلا اسم: النهاية

السرد ينتقل إلى مدينة بلا اسم، ربما وهم، ربما حقيقة. كانا يمشيان يدًا بيد في شارع ضيق، الريح تحمل رائحة الغبار والزهور البرية. حايم، بندبته التي أصبحت الآن جزءًا من أسطورتته، وهند، بعينها التي تحملان عاصفة صامتة، كانا يبدوان كشخصيتين من قصة لم تُكتب بعد. لم يعد هناك موساد أو مخابرات مصرية، لم يعد هناك معادلات أو مهمات. كان هناك فقط الحب، سلاح لا يحتاج إلى ذخيرة، قوة جعلتهما يتحديان العالم. تركا أثرهما يُمحي بالريح، كأن قصتهما كانت مجرد همسة في أذن الزمن.